جامعة كربلاء
كلية العلوم الإسلامية
دراسات اسلامية معاصرة / العدد 36 / حزيران 2023

السلالم الحجاجية في الشواهد القرآنية كلام أصحاب الكساء (ع) مثالا

argumentative metrics in Quranic Evidences, the Saying of Ahl Al-Kissa as a Model

م.م باسم شعلان خضير
Asst. lect. Basim Sh. Khudair
المديرية العامة لتربية النجف الاشرف
Annajaf Al-Ashraf Educational General Directorate
أ.د مسلم مالك بعيّر الأسدي
Prof. Dr. Muslim M. Al-Assadi
جامعة كربلاء/ كلية العلوم الإسلامية
University of Karbala/ College Islamic Science

الكلمات المفتاحية: السلم، الحجاج، الشواهد القرآنية، اصحاب الكساء، الكلام، الخطب.

KeyWords: metrics, argumentative, Quranic Evidences, Asshab Al-Kissa, Speech, Sermons

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على السلالم الحجاجية في الشواهد القرآنية عند أصحاب الكساء (عليهم السلام) كونه من الوسائل التي تؤدي لبيان المعنى الذي يقصده الشاهد القرآني، ومن ثم تفضي إلى نمط معيَّن من النتائج التي تتوخاها الوجهة الحجاجية، ومن ثم تمكن المتلقي من الفهم البين الذي لا ينتابه الغموض، ويتأتى ذلك من خلال علاقة تراتبية تتمظهر في ذلك السلم الحجاجي.

Abstract

This research aims to shed light on the argumentative ladders in the Qur'anic evidence for the owners of the kisa (peace be upon them) as one of the means that leads to the clarification of the meaning intended by the Quranic witness, and thus leads to a certain pattern of results that the argumentative destination envisages, and then enables the recipient to have a clear understanding Which is not subject to ambiguity, and this comes through a hierarchical relationship that appears through that argumentative ladder.

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد المصطفى الامين المبعوث رحمة للعالمين وعلى آلة الطيبين الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا

وبعد ...

يُعد الشاهد القرآني في كلام اصحاب الكساء(عليهم السلام) متكأً رئيساً في أثناء كلامهم بغية اقناع المتلقي والتأثير فيه ولعل ورود الشاهد القرآني في ذلك الكلام يؤدي وظيفة التآزر النصي بين كلام المعصوم وكلام الخالق سبحانه وتعالى بحيث يؤديان الى حجة دامغة من خلال تعاضدهما في النص الواحد وبما أن السلالم الحجاجية تؤدي وظيفة تراتبية منتجة حجج إقناعيه شكلت في تلك الخطب ملمحاً حجاجياً بارزاً افاد في تحقيق غايات إقناعيه مقصودة، وقد انتظمت الدراسة على ثلاثة مباحث المبحث الأول قانون تبديل السلم، أمّا الثاني فتناول قانون الخفض_في حين عرض الثالث قانون القلب وختمت الدراسة بأهم ما توصلت اليه من نتائج تلتها قائمة الهوامش والمصادر والمراجع سبق ذلك كله بمقدمة تناولت هيكلية الدراسة.

المبحث الأول : قانون تبديل السلم:

ومفاد هذا القانون: إن كان القول دليلاً على مدلول معين، فإنّ نقيض هذا القول دليل على نقيض مدلوله.[1] وبتعبير آخر: إن كان قول ما (أ) قد تم توظيفه من قبل متكلّم ما بغرض تحقيق نتيجة محددة، فإنّ نفيه (. أ) بالضرورة سيصب في خدمة النتيجة المضادة لتلك النتيجة.[2]

لا غرو البتة أن يجد القارئ في خطب أصحاب الكساء حضوراً كثيفاً للقرآن الكريم، فكثيراً ما يطالع القارئ في تلك الخطب قبساً من آي القرآن الكريم، تتناثر هنا وهناك في جسد النص منها، لتضفي عليه من قدسيتها،

وخصوصيتها، وتشكل بؤراً دلالية تنضح بالمعنى، والإيحاء، والتأثير، وتؤدي وظائف متنوعة. ويتنوع هذا الحضور، ويتفاوت بين الاقتباس الحرفي، والاقتباس الذي شهد شيئاً من التغيير ليتواءم مع السياقات النصية التي وظف فيها لأغراض متباينة بتباين السياقات، وما يعنينا هنا هو الاستشهاد بالآية الكريمة بصورتها الحرفية، حيث وظفت الآيات الكريمات في السياقات النصية المتنوعة، بوصفها شاهداً يقوي المعنى، ويعطف عليه، ويضاعف طاقته الحجاجية، والدلالية في آن.

من ذلك اخترنا قول فاطمة الزهراء عليها السلام في الخطبة الفدكية " فهيهات منكم، وكيف بكم، وأنّى تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لايحة، وأوامره واضحة، وقد خلفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟{ بِئسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلا }[3]، { ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين}[4] "

كثيراً ما تلجأ الزهراء عليها السلام إلى آي القرآن الكريم تكثف فيه جليل المعاني وكثيرها، وتفرغ عبرها شيئاً مما يعتمل في صدرها. ومنه قولها: " فهيهات منكم، وكيف بكم، وأنّى تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لايحة، وأوامره واضحة، وقد خلفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟{ بِئسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلا}[5]، { ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين}[6]. ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرتها، ويسلس قيادها، ثم أخذتم تورون وقدتها، وتهيّجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغويّ، وإطفاء أنوار الدين الجلي، وإهماد سنن النّبي الصفيّ، تسرون حسواً في ارتغاء، وتمشون لأهله وولده في الخَمر والضرّاء، ونصبر منكم على مثل حزّ المُدى، ووخز السنان في الحشا، وأنتم تزعمون أن لا إرث لنا! أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون، أفلا تعلمون؟"[7].

اختارت الزهراء عليها السلام أن تبين عاقبة أفعالهم التي تنتظرهم عبر قبس من آيات من القرآن الكريم كثفت فيها خلاصة قولها، ومدت كلامها بدفقة شعورية عالية الإيحاء والتأثير.

وهدفها استثمار طاقة الآيات الكريمات في إقناع المخاطب، والتأثير فيه لاتخاذ سلوكيات مقصودة تتمثل في تبني موقفها والدفاع عن حقها في إرث أبيها خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ونلاحظ تأكيدها على صلتها به صلى الله عليه وسلم مع أن المخاطبين كانوا يعلمون ذلك، والغاية حجاجية بحتة، إقناعية وتأثيرية بالدرجة الأولى.

إن القول الحجاجي الذي تضمنته الآية الكريمة التي تم الاستشهاد بها في النص السابق ينهض على حجج تفضي إلى نتيجة معينة، ويمكننا توضيح تسلسل الحجج في السلم الحجاجي للآية الكريمة { ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين } كما يلي:

- ابتغاء غير الإسلام ديناً: الحجة الأولى.
- لا يقبل منه: الحجة الثانية.

- هو في الآخرة من الخاسرين: الحجة الثالثة.
- خسارة الآخرة: النتيجة.

ويمكننا تمثيل تراتبية الحجج على السلم الحجاجي كما يلي:

أعلى السلم

خسارة الآخرة ن أ -

هو في الآخرة من الخاسرين ح3-

لا يقبل منه ح2 -

ابتغاء غير الإسلام ديناً ح1 -

أسفل السلم

تمثل (خسارة الآخرة) النتيجة (أ)، النتيجة المضادة لها (-أ) هي (ربح الآخرة)، وتبعاً لقانون تبديل السلم فإن نفي قول أو حجة من الأقوال أو الحجج التي تصب في صالح النتيجة (أ) سيؤدي بالضرورة إلى نفي النتيجة (أ) أو بتعبير آخر سيصب في خدمة النتيجة المضادة (-أ):

- ح1: ابتغاء غير الإسلام ديناً ⟸ نفي ح1: ابتغاء الإسلام ديناً ⟸ (-أ): ربح الآخرة.
- ح2: لا يقبل منه ⟸ نفي ح2: يقبل منه ⟸ ن (-أ): ربح الآخرة.
- ح3: هو في الآخرة من الخاسرين ⟸ نفي ح3: ليس هو في الآخرة من الخاسرين ⟸ ن (-أ): ربح الآخرة.

تتنضد الحجج في السلالم الحجاجية لتفضي إلى نتيجة عامة ذات طابع شمولي هي (خسارة الآخرة)، وبتطبيق قانون تبديل السلم يفضي نفي الحجج أو المقولات التي تخدم هذه النتيجة إلى خدمة النتيجة المضادة وهي (ربح الآخرة) كما هو موضح أعلاه.

في حقيقة الأمر إن الحجاج هو " نشاط إقناعيّ خطابيّ، يقوم على الاعتقادات والوقائع، ذو كفاية نصيّة وسياقيّة، يشتغل كاستراتيجيّات توظّف العوامل الذاتيّة، والقدرات الخطابيّة، ليحقّق النجاح والفعاليّة "[8]. ولذا آثرت الزهراء عليها السلام أن توظف الآية الكريمة لتستثمر طاقاتها الحجاجية الثرية، فحيث أرادات الزهراء عليها السلام أن تشير إلى عاقبة الحكم بغير كتاب الله، وهو الموقف الذي تحذر الزهراء عليها السلام المخاطبين من تبنيه، لجأت إلى استحضار الآية شاهداً، مكثفة عبرها قولاً كثيراً، مضفية على السياق ألقاً وجاذبية خاصة، من جهة، و مزيداً من الطاقات الحجاجية، والإيحائية، والانفعالية تضاف إلى السياق، مما يضاعف قدرته التأثيرية، من جهة أخرى.

ومن أمثلة الطاقات الحجاجية الثرية للشواهد القرآنية في كلام أصحاب الكساء نذكر أيضاً قوله تعالى من خطبة للإمام علي كرم الله وجهه:{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ }[9].

يقول عليه السلام: " ألا وإنّ القدر السّابق قد وقع، والقضاء الماضي قد تورّد. وإنّي متكلّم بعدة الله وحجّته، قال الله جلّ ذكره: {إنّ الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون} و[10]قد قلتم { ربّنا الله} فاستقيموا على كتابه، وعلى منهاج أمره، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته، ثم لاتمرقوا منها، ولا تبتدعوا فيها، ولا تخالفوا عنها، فإنّ أهل المروق منقطع بهم عند الله يوم القيامة".

ضاعفت الآية الكريمة المختارة الدلالة في السياق، وعمقت المعنى، وكثفته، فأرخت على جسد النص سجفاً من القداسة والرهبة، من جهة، وضخت طاقات حجاجية بوصفها استراتيجية إقناعية توجيهية، موظفة لتحقيق وظائف قبلية مقصودة بعينها، من جهة أخرى.

تتابعت الحجج في السلم الحجاجي في الآية الكريمة الموظفة في النص السابق، وتوالت وفق تراتبية تسلم فيها كل حجة الحجاج إلى الحجة التي تليها في السلم، لينتهي المطاف إلى نتيجة عامة تنضوي تحتها الحجج، وتؤدي إليها في آن، ويمكن تمثيل ذلك كما يلي:

- الحجة الأولى: الذين قالوا ربنا الله.
- الحجة الثانية: استقاموا.
- الحجة الثالثة: تتنزل عليهم الملائكة.
- الحجة الرابعة: قول الملائكة لهم لاتخافوا ولاتحزنوا.
- الحجة الخامسة: أبشروا بما كنتم توعدون.
- النتيجة: الفوز بالجنة.

ويمكننا تمثيل توالي الحجج على السلم الحجاجي كما يلي:

أعلى السلم
الفوز بالجنة: ن(أ)-
أبشروا بما كنتم توعدون: ح5-
قول الملائكة لهم: لاتخافوا ولاتحزنوا:ح4-
تتنزل عليهم الملائكة: ح3-
استقاموا: ح2-
الذين قالوا ربنا الله:ح1-
أسفل السلم

ووفقاً لقانون تبديل السلم سيفضي نفي المقولات التابعة لهذا السلم إلى خدمة النتيجة المضادة (-أ) وهي خسارة الجنة.ويمكننا توضيح ذلك كما يلي:

- ح1: الذين قالوا ربنا الله ⟵ نفي ح1: الذين لم يقولوا ربنا ⟵ ن(-أ): خسارة الجنة.
- ح2: استقاموا ⟵ نفي ح2: لم يستقيموا ⟵ ن (-أ): خسارة الجنة.
- ح3: تتنزل عليهم الملائكة ⟵ نفي ح3: لا تتنزل عليهم الملائكة ⟵ ن(-أ): خسارة الجنة.

- ح4: قول الملائكة لهم: لاتخافوا ولاتحزنوا ⟵ نفي ح4: لا تحدثهم الملائكة ولاتطمئنهم = الخوف والحزن على مصيرهم ⟵ ن(-أ): خسارة الجنة.
- ح5: أبشروا بما كنتم توعدون ⟵ نفي ح5: لا تبشرهم الملائكة بما كانوا يوعدون = الوعيد والتهديد ن (-أ): خسارة الجنة.

والهدف المحوري من توظيف الآية الكريمة هو إقناعي حجاجي بالدرجة الأولى؛ حيث تتضافر الطاقة الحجاجية للآية مع السياق، وتضاعف تأثيره لما تتمتع به الآيات من قدرة تأثيرية عالية، لمنزلتها الرفيعة، ومكانتها الأثيرة في نفس المتلقي، مما يحمله على إصاخة السمع، والانتباه، والاستجابة لما يمليه النص من مضامين تستهدف التأثير في سلوكيات المتلقي بعد إقناعه، لأن منبعها في المقام الأول هو القرآن الكريم.

وحيث أدت الآية دورها الحجاجي الإقناعي بعد ترسيخ النتيجة (أ): الفوز بالجنة، والنتيجة المضادة (–أ) خسارة الجنة في حال نفي أحد المقولات والحجج التي أدت إلى النتيجة (أ) عمد الإمام علي كرم الله وجهه إلى العطف على مضمون الآية،والتسليم بثبوت الحجة الأولى (قالوا ربنا)، فيطلب منهم متابعة الارتقاء باتجاه النتيجة، وهي الفوز بالجنة، مركزاً على الحجة الثانية وهي الاستقامة (ثم استقاموا):" وقد قلتم {ربّنا الله} فاستقيموا على كتابهِ، وعلى منهاج أمره.." مستهدفاً توجيه القارئ أو المتلقي إلى سلوك معين هو هنا (الاستقامة على كتاب الله عز وجل، ومنهاج أمره..الخ)، مستثمراً بذلك طاقات الآية الكريمة الحجاجية، ومستغنياً بما أدته من مهام إقناعية دلالية عن الشرح والتطويل،ويدخل مباشرة بعد مقدمة (وقد قلتم ربنا الله) يترتب عليها بالضرورة حجج تفضي إلى نتيجة، تتلاقى مع نتيجة الآية، وهي الفوز بالجنة ونعيمها لكن بعد تطبيق سلسلة من السلوكيات المطلوبة والمحددة قبلاً، وتفصلها الخطبة مما لايتسع المقام لذكره هنا.

المبحث الثاني : قانون الخفض:

ينهض قانون الخفض على فكرة مفادها: " إذا صدق القول في مراتب معينة من السلم، فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها "[11].

في الواقع إن الاستشهاد بالنصوص التي تتمتع بقيمة سلطوية على المخاطب، من مثل المقولات الدينية، وكلمات القادة الخالدين في نظر الجماعة الموجه إليها الخطاب والحجاج تعد بمثابة قوة حجاجية محورية لأي خطاب حجاجي تستحضر فيه؛ ذلك أن قيمة الشخص أو المقولة التي جرت المصادقة عليها مسبقاً من قبل المتلقي،

تمنح الخطاب الموظفة فيه تلك القوة، و توظف بغية تحقيق نتائج متنوعة؛ برهانية، وتوضيحية. وبصورة عامة يضطلع الاستشهاد بمهمة توضيحية، فيما يضطلع المثل بمهمة برهانية.[12]

من الآيات التي وظفت شواهد في سياقات نصية تعود لأصحاب الكساء لأغراض حجاجية إقناعية نذكر الآية الكريمة التي استشهد بها الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أحد خطبه:{تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}.[13]

وجاءت الآية في تلاحم تام مع سياق الخطبة النصي وجوها العام: " فلما دنا الفراق جمعنا في بيت أمنا عائشة – رضي الله عنها– فنظر إلينا، فدمعت عيناه ثم قال: مرحبا بكم، وحياكم الله، وحفظكم الله، آواكم الله، ونصركم الله، رفعكم الله، هداكم الله، رزقكم الله، وفقكم الله، سلمكم الله، قبلكم الله، أوصيكم بتقوى الله، وأوصي الله بكم، وأستخلفه عليكم، إني نذير مبين، أن لاتعلوا على الله في عباده وبلاده، فإن الله قال لي ولكم:{ تِلكَ ٱلدَّارُ ٱلأَخِرَةُ نَجعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّا فِي ٱلأَرضِ وَلَا فَسَاد وَٱلعُقبَةُ لِلمُتَّقِينَ }".[14]

وتفسير قوله تعالى:{ تِلكَ ٱلدَّارُ ٱلأَخِرَةُ نَجعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّا فِي ٱلأَرضِ وَلَا فَسَادا وَٱلعُقبَةُ لِلمُتَّقِينَ} كما تردد في كتب التفسير كما يلي:

يخبرنا الله عز وجل أن الدار الآخرة ونعيمها الأبدي الذي لانهاية له، ولا زوال، قد أعده سبحانه لعباده المؤمنين المتواضعين الذين (لايريدون علوا في الأرض) أي ترفعاً على الناس، وتيهاً وكبراً، وتعظماً، وتجبراً، (ولا فساداً) ولا فساداً فيهم وعملاً بالمعاصي.[15]

تتنضد الحجج في الآية الكريمة أعلاه بصورة تراتبية على السلم الحجاجي، بفعل تفاوتها في القوة الحجاجية، لتصب في نهاية المطاف في صالح نتيجة معينة، مقصودة بذاتها هي هنا (الفوز بالدار الآخرة). ويمكننا تمثيل ذلك كما يلي:

- الحجة الأولى: لا يريدون فساداً.
- الحجة الثانية: لا يريدون علواً في الأرض.
- الحجة الثالثة: العاقبة للمتقين.
- النتيجة: الفوز بالدار الآخرة.

ويمكن تمثيل تراتب الحجج على السلم الحجاجي كما يلي:

أعلى السلم
الفوز بالدار الآخرة:ن-
العاقبة للمتقين:ح3-
لا يريدون فساداً:ح2-
لا يريدون علواً في الأرض:ح1-
أسفل السلم

عامة تتعلق القضية في قانون الخفض بعملية التوجيه الحجاجي، وهو بدوره يعني أن الحجة تتفرد بقيمة معينة بالنسبة إلى النتيجة؛إذ يمكن للحجة أن تساند النتيجة العامة، كما يمكنها أن تعاندها وذلك ضمن نسب و مقادير معينة.[16]

وبناء على ما سبق إن نقيض الحجة الأولى (ح1: لا يريدون علواً في الأرض): (يريدون علواً في الأرض) يعاند النتيجة (الفوز بالدار الآخرة).

وكذلك نقيض الحجة الثانية: (ح2: لا يريدون فساداً): (يريدون فساداً) يعاند النتيجة.

ومن أمثلة ذلك أيضاً نذكر الآية الكريمة التي استشهد بها الإمام الحسن عليه السلام في إحدى خطبه، حيث وظف لغرض حجاجي قوله تعالى:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}.[17]

تتوالى الحجج في الآية الكريمة السابقة، فتسلم الواحدة إلى تاليتها شيئاً من القوة الحجاجية على السلم الحجاجي، لتفضي إلى نتيجة شاملة تتمتع بقوة حجاجية شديدة الفعالية، تأتت لها من تقنية تراكمية لقوة الحجج الجزئية عبر السلم الحجاجي:

- الحجة الأولى: أكملت لكم دينكم.
- الحجة الثانية: أتممت عليكم نعمتي.
- الحجة الثالثة: رضيت لكم الإسلام دينا.
- النتيجة الأولى: التمام والكمال والنعمة والرضا في الإسلام.
- النتيجة النهائية: الدين المتكامل التام هو الإسلام.

ويمكننا تمثيل تراتب تلك الحجج على السلم الحجاجي كما يلي:

أعلى السلم

الدين المتكامل التام هو الإسلام:ن-

التمام والكمال والنعمة والرضا في الإسلام:ن1-

رضيت لكم الإسلام دينا:ح3-

أتممت عليكم نعمتي:ح2-

أكملت لكم دينكم: ح1-

أسفل السلم

ووفقاً لقانون الخفض في السلم الحجاجي فإن نقيض الأولى يدعمها في عملية التدليل على النتيجة، ولما لم يكن بمقدورنا في هذا المقام ترتيب القول ونفيه على السلم الحجاجي ذاته لما يفضي إليه ذلك من تناقض، كان قانون

الخفض هنا يتمتع بفعالية مضاعفة؛ فإن صح القول (أتممت عليكم نعمتي) على السلم الحجاجي، فلا يمكننا أن نضع في المرتبة التي تحتها نفي القول (لم أتم عليكم نعمتي)،لعلة التناقض التي سيهوي فيها القول الحجاجي برمته، لذلك نلجأ إلى وضع نقيض القول: (النعمة ليست ناقصة).

يمكن تمثيل ذلك على السلم الحجاجي كما يلي:

أعلى السلم

الدين المتكامل التام هو الإسلام:ن-

التمام والكمال والنعمة والرضا في الإسلام:ن1-

رضيت لكم الإسلام دينا:ح3-

أتممت عليكم نعمتي:ح2-

النعمة ليست ناقصة-

أكملت لكم دينكم: ح1-

أسفل السلم

ومن الآيات التي استشهدت بها الزهراء عليها السلام نذكر كذلك الآية الكريمة:{ وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمّا رَأَوُا العَذابَ وَقُضِيَ بَينَهُم بِالقِسطِ وَهُم لا يُظلَمونَ}[18].

تم توظيف الآية من قبل الزهراء عليها السلام لغايات حجاجية إقناعية، شأنها شأن كثير من الآيات الأخرى التي وشّت بها الزهراء عليها السلام خطبتها في مواضع مختلفة.

والحجاج بصورة عامة يهدف إلى تغيير موقف أو وضع معين تارة، ويهدف إلى تدعيم وضع آخر تارة أخرى، و قد يهدف إلى دفع المخاطبة باتجاه معين يتخذ فيه موقف من قضية ما[19]. وفي الآية الكريمة التي تم توظيفها من قبل الزهراء عليها السلام تتراتب الحجج في السلم الحجاجي لتدعم نتيجة رئيسة هي (العدالة الإلهية)، ويمكن تمثيل ذلك كما يلي:

- الحجة الأولى: رأوا العذاب.
- الحجة الثانية: أسرّوا الندامة.
- الحجة الثالثة: قضي بينهم بالقسط.
- الحجة الرابعة: هم لا يظلمون.
- النتيجة: العدالة الإلهية.

ويمكن تمثيل تراتب الحجج على السلم الحجاجي كما يلي:

وبتطبيق قانون الخفض على السلم الحجاجي السابق يمكننا أن نجد أن نقيض الحجة الرابعة:(ح4: (قضي بينهم بالقسط) وهو:(ما قضي بينهم بالظلم) حيث صح القول به على السلم الحجاجي يصح هذا النقيض في الدرجة السابقة للحجة على السلم الحجاجي أو أسفل الحجة في السلم، كما يخدم النتيجة النهائية المقصودة من الوجهة الحجاجية برمتها، وهي هنا: (العدالة الإلهية). والأمر عينه ينطبق على بقية الحجج المشكلة للسلم الحجاجي المتوجه إلى إثبات العدالة الإلهية، وعدالة القضاء الذي استحق الكفار العذاب بناء عليه، فهم حصدوا نتيجة أعمالهم، وقطفوا ثمار سوء أعمالهم عذاباً وحسرة وندامة:

وعلى هذا النحو تجري فاعلية قانون الخفض في السلالم الحجاجية التي تشكلها الآيات الموظفة في خطب أصحاب الكساء، فتسهم الحجة في دعم النتيجة، أو معاندتها تبعاً لمكانتها، وقوتها في السلم الحجاجي.

المبحث الثالث : قانون القلب:

يتصل قانون القلب بالنفي، وينهض على فكرة مفادها أنه إذا كان أحد الملفوظين أقوى من الآخر في التدليل على مدلول ما، فإن نقيض الثاني أقوى من نقيض الأول في التدليل على المدلول[20].

وبتعبير آخر: إنْ كان لإحدى الحجتين الغلبة من جهة قوتها في عملية التدليل على نتيجة محددة، فإن نقيض الحجة الثانية لابد أن يكون أقوى من نقيض الحجة الأولى في التدليل على النتيجة المضادة[21].

من الآيات الكريمات التي وظفت لأغراض حجاجية إقناعية في خطب أصحاب الكساء، والتي يصلح تطبيق قانون القلب على سلمها الحجاجي أو فئتها الحجاجية تخيرنا الآية الكريمة التي استشهد بها الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم في إحدى خطبه، وهي قوله عز وجل: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[22].

وقد جاءت الآية في الخطبة على النحو الآتي: " بأمرك ياربّ أقول: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله والعن من أنكره واغضب على من جحد حقّه. اللهم إنّك أنزلت الآية في عليّ وليّك عند تبيين ذلك ونصبك إياه لهذا اليوم { اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينا، ففرض عليكم لأوليائه حقوقا وأمركم بأدائها إليهم }، وقلت: {إنّ الدين عند الله الإسلام}، وقلت: {ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين} اللهم إنّي أشهدك أنّي قد بلّغت"[23].

يرتبط قانون القلب بالنفي، والنفي هنا جاء في قوله (لن يقبل منه). فيما كان قوله: (من يبتغ غير الإسلام ديناً) حجة، نهضت في مقابلها الحجة الأخرى، وهي نفي قبول الله تعالى إيمان عبده (لن يقبل منه).

- الحجة 1: ابتغاء دين غير الإسلام.
- الحجة2: نفي قبول الله تعالى إيمان عبده (لن يقبل منه).
- النتيجة ن (أ): الخسارة في الآخرة (وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ).

انتهت الحجتان إلى نتيجة واحدة، و أفرغت كل منهما محمولاتها الحجاجية دالة على مدلول واحد وهو هنا (الخسارة في الآخرة). وهذه النتيجة تم التصريح بها في قوله (وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ).

ويمكن تمثيل ذلك كما يلي:

أعلى السلم

الخسارة في الآخرة:ن (أ)-

نفي قبول الله تعالى إيمان عبده ح2-

ابتغاء دين غير الإسلام: ح1-

أسفل السلم

إن الحجة الثانية (ح2) كانت أقوى في عملية التدليل على المدلول أو النتيجة ن(أ): (الخسارة في الآخرة)، والحجة الأولى (ح)1 أقل قوة في التدليل على النتيجة من الحجة الثانية، وتبعاً لقانون القلب سيكون: نقيض الحجة الأولى(ح1) أقوى من نقيض الحجة الثانية (ح2) في التدليل على النتيجة المضادة ن (–أ): (الفوز بالآخرة) أي: (نفي ابتغاء دين غير الإسلام) أقوى من نفي (نفي قبول الله تعالى إيمان عبده) في التدليل على النتيجة المضادة (–أ) وهي: (الفوز بالآخرة).

ويمكن تمثيل ذلك كما في المخطط التالي:

أعلى السلم

الفوز بالآخرة: ن (-أ)-

قبول الله إيمان عبده: ح2-

عدم ابتغاء دين غير الإسلام: ح1-

أسفل السلم

ومن الاستشهاد بآيات القرآن الكريم نذكر كذلك قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في خطبة الغدير:"ألا إنَّ أولياءهم المؤمنون الذين وصفهم الله عزَّ وجلّ فقال:{الّذين آمنوا وَلَم يَلْبَسُوا إيمانَهُمْ بِظُلمٍ أولئكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}[24] ألا إنّ أولياءَهُم الّذينَ آمَنُوا ولم يرتابوا. ألا إنّ أولياءهم الّذينَ يدخلون الجنّة بسلامٍ آمنين، تتلقّاهم الملائكة بالتسليم يقولون: سلامٌ عليكم طِبتم فادخلوها خالدين."[25].

تتماهى الآية الكريمة مع السياق النصي، وتصب في خدمة وظيفة حجاجية إقناعية، غايتها في المقام الأول توجيه المتلقي نحو تبني موقف محدد هو الإيمان الصرف الذي لا يخالطه أي شرك أو شك، ذلك أن المؤمنين الخلّص تتلقفهم الملائكة بالترحيب، والتسليم على أبواب جنات النعيم، وهي جائزة تحفيزية، تستميل نفوس المتلقين، وتسهم في زيادة الطاقة الإقناعية للخطاب.

ويخبرنا الطبري نقلاً عن أبي جعفر أن أهل التأويل اختلفوا في الذي أخبر الله عز وجل عنه أنه قال هذا القول (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم)، ويذكر أن المقصود في الآية الكريمة فصل القضاء بين إبراهيم عليه السلام وبين من حاجه من قومه من أهل الشرك بالله، فيقول تعالى ذكره: الذين صدقوا الله وأخلصوا له العبادة فلم يخالط تلك العبادة والإخلاص ظلم أي شرك أحق بالأمن.[26]، تقوم الآية الكريمة التي اتكأ إليها الخطاب في حجاجه الذي يستهدف استمالة المتلقي وإقناعه على مجموعة من الحجج، وتؤلف فئة حجاجية تتوالى فيها الحجج على السلم الحجاجي تسلم فيها الحجة الحجاج إلى أختها في الدرجة الأعلى من السلم، وصولاً إلى نتيجة عامة شاملة، وفق ما يلي:

الحجة الأولى: آمنوا.

الحجة الثانية: لم يلبسوا إيمانهم بظلم.

النتيجة: لهم الأمن والهداية

ويمكن تمثيل تراتب تلك الحجج على السلم الحجاجي كما يلي:

أعلى السلم

لهم الأمن والهداية: ن (أ)-

لم يلبسوا إيمانهم بظلم: ح2-

الذين آمنوا:ح1-

أسفل السلم

إن قانون القلب كما نعلم يتصل بالنفي، و النفي في هذا المقام جاء في قوله تعالى: (لم يلبسوا إيمانهم بظلم)،لقد شكل قوله جل وعلا: (الذين آمنوا) الحجة التي نهضت في مقابلها الحجة الأخرى، وهي نفي التباس إيمانهم بظلم (لم يلبسوا إيمانهم بظلم).

أفضت الحجتان إلى نتيجة واحدة عامة وشاملة، إذ مدت كل منهما السلم الحجاجي منهما بطاقاتها الحجاجية موجهة الدلالة باتجاه مدلول واحد، وهو هنا (الفوز بالأمن والهداية). وهذه النتيجة جاءت صراحة في قوله تعالى: (لهم الأمن وهم مهتدون).

وبتطبيق قانون القلب على السلم الحجاجي أو الفئة الحجاجية التي تؤلفها الآية الكريمة سنجد أنّ الحجة الثانية (ح2) كانت أقوى في عملية التدليل على المدلول أو النتيجة ن(أ): (لهم الأمن والهداية)، والحجة الأولى (ح1) أقل قوة في التدليل على النتيجة من الحجة الثانية، وتبعاً لقانون القلب سيكون: نقيض الحجة الأولى(ح1) أقوى من نقيض الحجة الثانية (ح2) في التدليل على النتيجة المضادة ن (–أ): (خسارة الأمن والهداية) أي: (نفي الإيمان) أقوى من نفي (لم يلبسوا إيمانهم بظلم) في التدليل على النتيجة المضادة (–أ) وهي: (خسارة الأمن والهداية).

وبناء على ما سبق يمكننا القول إن ثمة سلماً حجاجياً ينهض مقابل السلم الحجاجي الأول الذي أفضى إلى النتيجة (أ) نستطيع استنباطه من السلم الأول، ويؤدي هذا السلم إلى النتيجة المضادة للنتيجة الأولى (–أ)؛ كما يلي:

- الحجة الأولى: الذين آمنوا.
- نفي الحجة الأولى: عدم الإيمان.
- الحجة الثانية: لم يلبسوا إيمانهم بظلم.

- نفي الحجة الثانية: التباس إيمانهم بظلم.
- النتيجة(أ): لهم الأمن والهداية.
- النتيجة المضادة (-أ): خسارة الأمن والهداية.

ويمكن تمثيل ذلك كما في المخطط الآتي:

أعلى السلم

خسارة الأمن والهداية: ن (-أ)-

التباس إيمانهم بظلم: ح2-

عدم الإيمان:ح1-

أسفل السلم

يصبّ هذا الحجاج في نهاية المطاف في خدمة السياق النصي الذي تم فيه توظيفه، يضاف إلى قوته الإقناعية المنطقية المكانة المرجعية المتفردة والعالية لمصدره عند المتلقي، وموقعه الأثير في نفسه، وهو هنا القرآن الكريم، حيث تضاعف هذه المكانة، والتأثير العالي القبلي لمصدر الشاهد في المتلقي القدرة الحجاجية الإقناعية للخطاب، وتسهل مهمته في توجيه المخاطب نحو سلوكيات معينة محددة مسبقاً. وعلى هذا النحو كانت فاعلية الحجاج للشواهد القرآنية في خطاب أصحاب الكساء متمثلاً في أحد تقنياته وأبرز آلياته وهو السلم الحجاجي.

النتائج :

توصلت الدراسة الى مجموعة من النتائج يمكن اجمالها بالآتي:

1) ألف الشاهد القرآني في خطب اصحاب الكساء (عليهم السلام)آلية من آليات الاقناع التي يمكن التوسل بها لاستمالة المتلقي وجلب انتباهه .
2) وظفت قوانين السلّم الحجاجي بأنواعها الثلاثة وأظهرت من خلالها تراتبية الحجج لتحقيق غايات مقصودة بغية اقناع المتلقي .
3) أظهرت السلالم الحجاجية في الشاهد القرآني مدى المواءمة والارتباط من حيث المعاني والدلالات مع خطب أصحاب الكساء(عليهم السلام) من خلال توظيفها مع الشاهد القرآني .

الهوامش:

[1]: ينظر طه عبد الرحمن،اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ص 278.

[2]: ينظر أبو بكر العزاوي، الحجاج في اللغة، ص 62.

[3]: الكهف:50، ص.96.

[4]: آل عمران: 85.

[5]: الكهف:50، ص.96.

[6]: آل عمران: 85.

[7]: خطبة فدك، ص 96-100.

[8]: محمد طروس، النظرية الحجاجية، من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية،ص170.

[9]: فصلت: 30.

[10]: صفوة شروح نهج البلاغة، ص 416.

[11]: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي،ص277.

[12]: ينظر باسم خيري خضير، الحجاج وتوجيه الخطاب مفهومه ومجالاته وتطبيقات في خطب ابن نباته ،ص 79.

[13]: القصص: 83.

[14]: خطب الرسول، ص160.

[15]: ينظر ابن كثير، تفسير ابن كثير، 260/6.

[16]: ينظر رشيد الراضي، الحجاجيات اللسانية والمنهجية البنيوية، ص95.

[17]: المائدة:3.

[18]: يونس: 54.

[19]:ينظر محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكرص57.

[20]: ينظر: طه عبد الرحمن،اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 278.

[21]: ينظر أبو بكر العزاوي، الحجاج في اللغة، ص 63.

[22]: آل عمران: 85.

[23]: خطبة الغدير، ص 42-44.

[24]: الأنعام:82.

[25]:محمد باقر الأنصاري، خطبة الغدير، بحار الانوار، ص 52.

[26]: ينظر محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن،، 11/ 493.

المصادر والمراجع

- أبو بكر العزاوي، الحجاج في اللغة، دار الأحمدية، المغرب، 2006م، ط1.
- باسم خيري خضير، الحجاج وتوجيه الخطاب مفهومه ومجالاته وتطبيقات في خطب ابن نباته،دار صفاء للنشر والتوزيع،عمان،1440هـ - 2019م،ط1
- رشيد الراضي، الحجاجيات اللسانية والمنهجية البنيوية، المركزالثقافي العربي، 2014.
- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1998م.
- محمد باقر الأنصاري، خطبة الغدير النص الكامل، شبكة الفكر.
- محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة،مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت،ع3،،2000.
- محمد طروس، النظرية الحجاجية،من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية،ط1،مطبعة النجاح الجديدة،2005م.